مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع JALHSS
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences – JALHSS
ISSN: 2414 – 3383 www.jalhss.com
العدد (2) كانون الثاني - يناير 2016

التاريخ القديم بين الهوية الثقافية والهوية الوطنية

الأستاذ المساعد الدكتور
مزهر الخفاجي
كلية التربية (ابن رشد) – جامعة بغداد
بغداد - العراق

تمهيد

الهوية / مصطلح يستخدم لوصف مفهوم الشخص وتعبيره عن فرديته وعلاقته مع الجماعات الأخرى [1]. وقد جاء في اللغة أن الهوية هي مجمل السمات التي تميز شيئاً عن غيره أو شخصاً عن غيره أو مجوعة عن غيرها، وكل منها يحمل عناصر هذه الهوية وهي شيء متحرك ديناميكي يبرز احدهما أو بعضهما في مرحلة تاريخية معينة وبعضها الاخر في مرحلة أخرى[2]. ويعرف " انتوني سميث" الهوية فيقول : هي اعادة انتاج واعادة تفسير دائم للرموز والقيم والذكريات والاساطير والتراث الذي يميز الامم عن بعضها البعض ويُعرف به الافراد وقد ذكر سميث جانبين مهمين في الهوية الوطنية :اولهما :- الجهة المستفيدة من الهوية الوطنية ويقصد بها الأمة والافراد . والثاني: الجانب التفاعلي والحركي والمتغير للهوية الوطنية مشيراً الى أن الامم والافراد قد يغيرون تفاعلهم بشأن ما ينبغي ان تكون اهدافهم[3].

أما هيراميس باوند" فقد عدَّ الهوية بأنها تلك الاجابة الواعية للأمة عن الاسئلة المحيطة بها والمتعلقة بتاريخها وثقافتها ومصدر انبعاثها ونفوذها الحضاري ومكانته السياسية ومنها التاريخية وما دمنا توقفنا عند الهوية فلا بد ان نتوقف عند مفهوم الأمة عند الانثروبولوجي " أرنست ثجلز" فمفهومها عنده : (... اشتراك مجموعة من الناس بعناصر ثقافية تتضمن نظاماً من الافكار والرموز وطرائق السلوك والاتصال كما أنه اعتراف الافراد لبعضهم البعض بأنهم جزء من [4] جماعة تتمايز عن غيرها بثقافتها[5] وان هذه الجماعة تُرغب ولأسباب انسانية وتاريخية ان تكون خاضعة لقوانين اجتماعية واحدة وادارة مشتركة للعيش كسمة من سمات الاجتماع البشري [6].

ولأن الحضارات كانت قد هيئة نوعاً من البيئة الاجتماعية التي تحتضن عدداً من الامم والاقوام المختلفة، وان الحدود الرمزية لهذه الحضارات ، بمثابة فترات زمنية ... شهدت حصول عدد من التطورات الثقافية القوية على نحو منفصل، ... وأنه من تلك المحطات المحورية في التاريخ، انتقلت البشرية من نوع من المزاج الغريزي الى نوع من السعي التأملي الذاتي المتطلع الى التعالي وتقرير المصير[7] (وتحقيق الذات الحضارية). ان الحضارات ما هي الا نواميس وتقاليد تعددية لجملة افكار دينية وفلسفية وعلمية، وهي بذلك تُعد كيانات منعكسة من حشد من السيرورات والممارسات التاريخية الكبيرة[8]. وان التجمعات الحضارية وفق هذا المنطق لم تكن إلا نماذج اجتماعية متمركزة على صيغ مدنية للحياة وان أولئك الذين يرون انفسهم متحضرين في ازمانٍ غابرة... كانو قد انتقلو من حالة الى آخرى، بذلك تصبح المجتمعات الحضرية تتجلى في تاريخ وثقافة المجتمعات بوصفها هويات مستقرة متفاعلة بطرق مألوفة... وهي دائمة وأن هذه المجتمعات قادرة على انتاج نفسها عبر سلسلة من الحدود السلوكية والرمزية في المجتمع[9]. والتي تعبر عن نمط ثقافتها ونسق تفكيرها وهذان العنصران هما المعبران تاريخياً عن هويتها... وان الفعل الحضاري الانساني كانت، نظاما اجتماعياً يعُين الانسان في التعبير عن هويته من خلال الزيادة في انتاجه الثقافي[10]. وهي ثمرة جهد الانسان لتحسين ظروف حياته بصورة مقصودة أو غير مقصودة مادياً أو معنويا[11] وهي الاطار الاوسع والارحب للصفات الثقافية المرتبطة بكينونته ان الحضارة الهوية ليست الا الثقافة ومنظومة القيم المكتوبة بأحرف كبيرة على امتداد الزمان والمكان الانساني[12]. وان الحضارات لا تتمتع بحدود واضحة ولا ببدايات ونهايات دقيقة، فالناس يستطيعون، ويبادرون فعلاً الى اعادة تحديد هوياتهم، اذ تتعرض ثقافات الشعوب والاقوام لشكل من اشكال التطور والنمو والنصح والازاحة أو الاثر والتأثير . فتتفاعل وتتداخل مع بعضها البعض ورغم التشابه بين هذه الثقافات والحضارات والتعاصر تاريخياً، غير ان الحضارات تبقى مع ذلك كيانات ذات معنى أي ذات خاصية وهوية تختلف الواحدة عن الاخرى ، لان الهوية أو الهويات المركزية ليست محل اختيار الناس وهي ليست علاقة يختارونها ولكنها ارتباط يكتشفونه، وهي ليست مجرد خاصية شكلية لكن عنصراً اساسي من عناصر هويتهم[13].

ولقد كان ينظر الى الشعور بالانتماء الى ثقافة جماعة انسانية باعتباره أحد مصادر الثروة أو هي رأس المال الفكري لديهم[14] وأن الهوية الوطنية دائماً ما يعبر عنها بالهوية الثقافية والتي تجمعها مفردة الهوية الحضارية وهي الهوية الاساس لانها الهوية المجتمعية الاسمى والتي لا نضير لها حتماً[15] وكانت هي السمة التي تطبع حياتهم، وان ظاهرة الاعتراف بوجودها لا يعني تقسيم الناس في هذا العالم الى أقسام منفصلة وكأنهم محبوسون داخل صناديق صغيرة من الثقافات والجغرافيات المنقطعة الصلة كل عن الأخرى. وان سيادة هوية ثقافية لجماعة انسانية وطنية ليست مسألة اختيار[16] كما قلنا .. انما هي مسألة أدراك للذات، أن معرفة الماضي لأي أمة يمكننا ان نعرف الدور التاريخي لتلك المجتمعات القديمة[17]. والتدقيق في ادوارها لان التاريخ هو الأثر وباطنه هو التأثير المراد كما يقول " ابن خلدون" والذي تجلى في تحديد هوية الامة وتبيان اثرها الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي في المحيط البشري .

الجغرافية والطبيعة والهوية

هناك دول وحضارات سميت بالحضارات الكاملة أو الأصلية وهذا الأمر ينطبق على كل من (العراق، ومصر، والصين، وحضارة المايا والازدك في المكسيك وحضارة بلاد فارس)[18]. وهناك دولة أو حضارات ناشئة مخترعة، ولا نأتي بجديد حين نقول : أن الدين واللغة والآداب والاسطورة والتاريخ كانت تشكل الهوية الوطنية لهذه البلدان.

لقد قامت الاوطان وما زالت على عنصرين اساسيين: هما جغرافية المكان عبقرية انسان وهما عنصران ساهما في التكوين الثقافي والتاريخي لهذه البلدان أن بلاد الرافدين اسم واقعي يعبر عن الشرط الجغرافي البيئي والذي اجتمع فيه الناس منذ فجر التاريخ وتعايشوا وبنوا دولتهم وثقافتهم المشتركة خلال مسيرة الاف السنين . ويبين هذا

الوجه من الهوية الوطنية مدى تعلق الفرد والجماعة بالارض وحدودها الجغرافية، وأن للبعد الجغرافي في العراق اهمية ماسة في تأسيس الهوية الوطنية لأن على حدود هذه الجغرافيا وليس على غيرها، تشكّلَ وكُتبَ وحَدثَ في تاريخ حضارة هذه البلاد الشيء الكثير لذلك يصبح التاريخ بذكرياته واحداثه وانتصاراته وهزائمه وحروبه ، وسلمه، يرتبط وبشكل دقيق بالانسان الرافديني ويخلق بتلك الاحاسيس المشاعر "الوعي المشترك" لدى الأمة مما يعني ان تلك الجماعات من الناس كانت مهيأة لأمتلاك هويتها الوطنية[19].

الجغرافيا والهوية الوطنية في العراق

لأسباب معرفة يتبين أن التمدن في بلاد وادي الرافدين حصل في جنوب العراق، لا في الشمال وهذه الظاهرة تثير الدهشة والاستغراب، فالمتتبع للتطورات الحضارية في هذا البلد يلاحظ أن أقدم استيطان بشري في العراق كان قد حصل في المنطقة الشمالية[20] وليس في مكان أخر .

اذ اعتبرت مدن مثل (اريدو واور وآورك) المدن المعاصرة لها في الجنوب أولى المدن في العالم. خاصة بعد أن وجدنا أن هذه المدن أو غيرها من مدن العراق وحواضره قد كشفت عن جود نمو جماعة ارتفعت في حياتها الى مستوى مدنية، فتصرفت بفائض ثروة حقيقيه تجمعت في يد (إلـه المدينة) ويديرها رجال الدين (الكهان) ويشرف على تنظيم القوى العاملة فيما بعد. أن تطورات فيها زراعة بسيطة وتجارة بدائية ، ونقل بطيء، مع اكتشاف لا يقل اهمية عن اكتشاف الزراعة تمثل بمعرفة الكتابة، وبالطبع لم تكن (الوركاء) وحدها بمثل هذه الحالة فمواقع المدن السومرية الاخرى ومنذ عصر فجر السلالات شهدت مثل هذا التطور[21].

وقد كان لوجود نهري دجلة والفرات ولوجود رقعة واسعة من الاهوار والتي كان تنتشر فيها الادغال وتكثر فيها الطيور والاسماك، وقد دفعت هذه المسطحات المائية المستوطنين الاوائل الى ترويض دلتا النهرين وجعلها قابلة للأستيطان، فحفروا الترع وبنوا السدود ورفعا الارصفة لحماية السكان والقطعان من خطر الفيضانات وقطعوا القصب والبردي، وزرعوا الارض المستخرجة من الهور وكانت مكافئة الطبيعة لها محصولاً جيداً من الحبوب والتمور والمراعي[22].

ان السهل الرسوبي بجنوب العراق كانت قد هيأ الظروف الطبيعية وشجع على وجود تجمعات سكانية وتعاون بشري وحين حلت دولة المدينة في عصر فجر السلالات بحدود 2800 ق.م محل القرية ومشيختها، حل القانون محل التقاليد والعرف، فدونت الشرائع من قبل الحكام ليخضع الجميع الى قواعد مشتركة واحدة في تنظيم الحقوق والواجبات المعاملات والعقوبات[23].

وتأتي بعد مدينة، ..(اروك ، ومدن اريدو وأور ولارسا ولكش وكرسو وسرغل واوما، وشرو باك وبسما نيسبور وكيش وايسن وسبار، وكوشي وبابل وبورسباو اشنونا واشور وبينوى واراك واكد)[24] ويبدو أن المدن المبكرة والتي كانت النواة لدولها وحضاراتها القديمة وكان فيها العديد من الصيغ المنظمة المشتركة فعرفت مثلاً "النظام الثيوقراطي" لأن الحاكم فيها كان الملك والكاهن الاعلى وهم شخص واحد والنخبة المتعلمة والحاكمة فيها كان مستقرها الرئيس في وسط المدينة، وان خدمتهم وتابعيهم كانوا يقيمون حولهم في هذا المركز أي مركز القرار السياسي ونقصد قصر الحاكم (الملك) ان هذا المهاد السياسي هو الذي شكل لنا فيما بعد أي بعد انتقال الحضارة في العراق القديم من نظام دولة المدينة (City state) الى الدولة المركزية على يد الملك سرجون الاكدي (2371-2316ق.م) انتقلت فيها الحضارة الرافدينية لتشهد فترة الثلاث الاف عام قبل الميلاد بنشوء اربعة حضارات كبيرة ونقصد الامبراطورية السومرية والاكدية والبابلية، والاشورية، لقد سخت الطبيعة على بلاد الرافدين منذ القدم فوفرت له سهولاً واسعة منبسطة، ومياهها وفيرة ومناخاً معتدلاً، ولكن سخاء الطبيعة كان محدوداً فمقابل هذا العطاء السخي نطلب العمل الجدي القائم على اعمال الفكر والعقل لاستثمار مثل هذه

المكتسبات. وكان للجهد الذي بذله الانسان العراقي القديم على صعيد تحقيق ذاته الانساني قد كان له الدور الأول في نشوء وتطور الحضارة العراقية القديمة وهنا لابد أن نحدد جغرافية أو الحيز الذي كان مساحة للفعل .

حدود العراق في التاريخ القديم

ظهر لفظة العراق لأول مرة منذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد البعض قال انها ربما كانت ذات صلة بكلمة اروك التي تعني المستقر" ولم تطلق هذه التسمية على العراق الذي نعرفه الآن. فلقد عُرفت جغرافية العراق وحدوده وتسميته في حدود الالف الثالث قبل الميلاد ذلك بعد اكتشاف الكتابة وقد وجدت اقدم تسمية له واطلقت على المنطقة الجنوبية من العراق تحديداً، على القسم الجنوبي من السهل الرسوبي وقد اصطلح عليه مصطلح بلاد سومر (Ki.en.gi). (كي- ان – جي)[25] والتي معناها بالسومرية (سيد القصب)، وسميت كذلك باسم بلاد السومريين (مات شو ميرم) وكان حدود هذه البلاد تضم كل ن محافظة الناصرية والمثنى والديوانية).

اما ابرز مدنه فهي (نفر، الوركاء، اور، واريدو، لكش، كيش، لارسا، ايسن، واكد، وشروباك واوما). ثم ظهر في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد مصطلح (بلاد اكد) وعرفت بالسومرية بـ(مات اكديوم) أي بلاد الاكديين.

وقد اطلق مصطلح (K-1Ur-i) أي (كي – اور-ي) والتي امتدت بعد ذلك لتضم من شمال بغداد حتى جنوب الحلة، وعرفت هذه البلاد ايضاً (ببلاد اكد) نسبة الى مدينة (اكد) والتي لم يعرف مكانها بعد، ومن اهم مدنها (سبار،كوثا، بابل ، بورسيبا، وكيش) وتشمل بلاد (اكد) المنطقة الواقعة من مدينة (هيت) وتشمل ايضاً مدينة كربلاء، الديوانية ، بابل، وبعض مناطق الانبار وديالى)[26] . ومنذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد أستخدم مصطلح(بلاد بابل) نسبة الى (مدينة بابل) وكانت هذه التسمية قد شملت المنطقة المعروفة (ببلاد سومر واكد) واطلقت كذلك على الاقسام الوسطى والجنوبية من العراق وقد اتسع استخدام مصطلح(ka. dingir. Na. ki) والتي تعني بالسومرية (باب الاله) اما باللغة الاكدية كتبت على هيئة (باب ايلي)[27] . أو (بابليم) أي (باب الالهة). اما مفردة (العراق) والتي عرفت منذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد فقد اطلقت على الاقسام الجنوبية والوسطى من العراق بينما استخدم مصطلح (الجزيرة) للدلالة على الاراضي الواقعة بين النهرين حتى حدود بغداد جنوبا وبعض الباحثين يرجحون ان هذه التسمية أي تسمية العراق ربما كانت اشتقاقا من كلمة (اريقا)[28] وهي التسمية التي اطلقت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد للدلالة على اقليم موجود وسط العراق.

وقد عرف العراق باسماء اخرى فقد اطلق اليونانيون تسمية اخرى على بلاد سومر واكد وبابل والعراق فاسموه (ميزبوتا ميا) (Mesoptemia) أي (بلاد ما بين النهرين) وهو الاسم الشائع عند اليونانيين ويذكر العالم فلنكشتاين أن مصطلح(ميزوبوتاميا) قد يعود باصوله الى تسميات عراقية قديمة حيث ورد في النصوص المسمارية بعض التسميات المشابهة منها (بيريبت تاريم) أو (مات بيريم). وكلها تعني بلاد ما بين النهرين ، أما في التوراة فقد اطلق على العراق بالعبرية – اسم ارام نهرايم، وبالارامية "ارام النهرين" أي بلاد النهرين، وقد اطلقت هذه التسمية على الاقليم الواقع بين نهر الفرات الخابور، وقد تم تداول هذا الاسم من قبل الكُتاب الاوربيون للدلالة جغرافياً على العراق بصورة عامة ويبدو أن استخدام تسمية العراق هو أقرب المصطلحات للواقع واكثرها التصاقاً بتاريخ الحضارات والتي قامت في هذا الجزء الهام من العالم.

وحين نتقل الى تحديات المؤرخين العرب المسلمين لجغرافية العراق ارضاً وحدوداً، فيذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف[29]. فيقول:- وارض السواد وهو العراق، فقالو:- حَدهُ يلي المغارب واعلى درجة من ناحية أشور ، وهي (الموصل) بالمثلث من الجانب الشرقي ومن دجلة وهي (طسوج) مسكن، ومن جهة المشرق الجزيرة المتصلة بالبحر (الفارسي) (والخليج العربي) وراء البصرة ويضيف وهي اشرف بقعة ومن المواضع التي اختارتها ملوك الامم وهي تتكون من حيث تلتقي دجلة والفرات وما يقرب من ذلك، وهي ارض السواد، البقعة التي حدها الزاب فوق (سُر من رآى) مما يلي من الموصل وتكريت وحلوان وما يلي الجبل وهيت مما

يلي الفرات والشام وواسط من اسفل دجلة، والكوفة من سقي الفرات الى يهنوف وباداريا، وباكسيبا وهي النبطية من ارض جوجي[30].

ويقول أبن رسته[31]:- ان حدود السواد من ارض العراق والذي تم مسحه هو من مدن تخوم الموصل، ماراً الى ساحل الشمال من بلاد عبادان، شرقي دجلة طولاً، وعرضه منقطع الجبل (حمرين) من ارض (حلوان) بعد خانقين الى منتهى طرق القادسية مما يلي الغريب.

الوحدة المجتمعية

المجتمع من التنوع البشري الى (الوحدة المجتمعية)

يعرف انتوني سميت الاثنية المجتمعية بانها جماعة بشرية يشترك افرادها في اساطير واحدة عن الاصل والنسب في ذاكرة تاريخية وانماط ثقافية وقيم مشتركة، وفي الارتباط بأقليم محدد وتستقر هذه المجموعة كذلك بالاحساس والتضامن المجتمعي (ويضيف سميث) كان البشر دائماً يشعرون بالارتباط بهويات متعددة وحتى في هذه المجتمعات ما قبل التاريخية كانت (العائلة/ والعشيرة/ والمستوطنة) تتنافس على الفوز بولائهم وبانتقالنا الى المجتمعات التاريخية . نمت وتطورت دوائر العائلة والعشيرة والمستوطن والاقليم على شكل دولة المدينة فصارت الفئة الاجتماعية والجماعة الاثنية تُساهم في ادارة هذه الدولة[32] وان المجموعة البشرية التي ساهمت في تكوين الجماعة البشرية (الوحدة الاثنية) في بلاد وادي الرافدين تشير الى أن هذه الجماعة كانت قد تكونت من عنصرين بشريين هما (العنصر المحلي والعنصر الوافد) ونقصد بالعنصر المحلي هو العنصر السومري والعنصر الجزري(السامي) وهو العنصر الوافد[33] . وقد ارتبطت هاتين المجموعتين البشريتين فيما بينهما بمجموعة من العلاقات فرضها منطق المكان وظاهرة الاستقرار البشري ومنطق الزمان والذي بشرت به ظاهرة التعاصر التاريخي هذه الامور هي التي جعلت منهما وحدة واحدة في تاريخ الشرق القديم ويذكر (سبتينو موسكاتي) ان الصحراء العربية (الجزيرة) هي قلب الشرق القديم وهي موطن الساميين البدو والذين اشتغلوا بالرعي في بلادهم واجبرهم قحط بلادهم الى الخروج مرات متتالية الى الاقاليم الخصبة المحيطة بهم[34].

وان هذه الاقوام قد أتت اصلاً خلال ازمنة تاريخية متعاقبة للاستيطان في المناطق الخصبة المحيطة بالصحراء كما اسلفنا، لتكون مع الاقوام المحلية وحدة واحدة، وذلك ليس بسبب تجمعها في منطقة واحدة وتحدثها بالهجمات تنتمي الى لغة واحدة. وقد ظهر لنا أن دولة هذه الاقوام لا تقوم على اساس من الجمع القسري لعناصر ترتبط فيما بينها بمحض الصدفة ولكنها صورة لوحدة عضوية محددة تحديداً جيد، داخل التاريخ السياسي والثقافي للشرق الادنى القديم[35].

ان الدولة الحضارية في العراق القديم كما يلاحظ انها قامت على تعاقد تاريخي بالتراضي بين (الجماعة المحلية السومرية) (والجماعة الوافدة) من الجزرين (الساميين). وهذا الامر هو الذي جعلَ علماء الحضارات القديمة يقولون أن مدن مثل أور واريدو، والوركاء، واكد، واشنونا، وبابل، واشور هي التي شكلت حضارة بلاد الرافدين . وساهمت فيما بعد في أقامت دولها وممالكها وامبراطوريتها في دولة مركزية قوية، وقد تمظهرت على شكل امبراطوريات عديدة من سومرية واكدية، وبابلية واشورية... ليصبح العراق في منطقة الشرق القديم صانع ذاته بمعنى انه لا يرتبط من حيث تكونه الذاتي وقدرهُ التاريخي يقوى غير سواه[36].

ان هذه الحضارة قد تمتعت بآلية داخلي كانت قد اتخذت اشكالاً وانماطاً مختلفة قبل أن تتبلور لتتوضح هويتها الحضارية وهذه الاليات قد ابتدأت بالخصائص التالية :

1- الانتشار الصامت والبحث والاكتشاف لهذه الاقوام .

2- الرغبة في تأكيد الذات الجمعية للأقوام المحلية والوافدة.

3- التقليد الاجتماعي (التعبير عن المنجز).

4- ثم التصدي العلني للمنجز الحضاري (الاثر والتأثير).

نعم لقد لاحظنا أن هذه الوحدة الاثنية شقت طريقها بصمت من دون مقاومة الى اقليم جديد[37] مرشحة نفسها الى ان تسود وتتفوق مثلها مثل نظيرتها (المصرية) أن المجموعتين الاثنيتين (السومرية والجزرية) قد تفاعلتا وتكاملتا في تصدير منجزها الفكري والديني والفلسفي والاسطوري بغية تحقيق الروح الكامنة من وراء هذه الحضارة وفي توكيد ذاتيتها أو (هويتها).

لقد نجحَّ الفرد الرافديني بعد ذلك في اكساب صفة التماسك للحضارة التنمية بوعاء لغة لخلق نوع من الوحدة السياسية والثقافية ... ان كل من اللغة السومرية والاكدية والبابلية والارامية كان لابد بما تتوفر فيها جاذبية عابرةً لعراق ومن تكوين لغة قادرة على اطلاق افكار عابرة للاقاليم المحلية (المدن) والتفاعل مع لغة قوية (ونقصد السومرية) كانت حاضرة في كل المنجز الابداعي لأن هذه اللغة عبرت عن روعة الادراك الذي تتمتع به الجماعة الاثنية وكان هذا الادراك والوعي لهُ ابعاد متنوعة لان الحضارات ليست جامدة وتوافقية بل ديناميكية متحركة وهي سجال مستمر مع الذات والاخر أي الانسان والما حول .

الوحدة السياسية

لقد استندت الدولة في نظام حكمها السياسي منذ عصر فجر السلالات حتى مجيء سرجون الاكدي أي من (3000 ق.م الى 2371 ق.م) الى نظام الحكم الاداري اللامركزي، وان دويلات المدن السومرية كانت في نزاع مستمر مع بعضها البعض من اجل السيطرة السياسية وقد مارست دويلات المدن الاكثر ثراءاً وقدرةً مثل كيش والوركاء، نوعاً من السيادة على البقية[39] أي التداول على حكم البلاد لينتقل نظام الحكم بعد تسلم سرجون الاكدي (2371- 2316ق.م) من (نظام الحكم اللامركزي) الى (نظام الحكم المركزي)، لكن علينا أن نقر أن الملوك الذين جاءوا بعد سرجون الاكدي قد لاقو صعوبات جمة في محو فكرة الاستقلال المحلي أي (الحكم اللامركزي) والتي كانت قد سادت في عصر فلجر السلالات في اذهان العراقيين القدامى إذ ان سياسة المغانم وتغليب فكرة الولاء للملك واستمرار عسكرة الدولة الاكدية لم تفلحان في بقائها صامدة أذا انهارت الدولة بعد ان دام حكمها قرابة (125) عاما ودبَ الضعف فيما بعد وخاصة في عهد خامس ملوكها (شار- كالي – شار)[40].

ليعود بعد ذلك نجم السومريون بالصعود من جديد ويستلم تقاليد الحكم الامور بعدهم السومريون الجدد في عهد (سلالة آور الثالثة (2112- 2004 ق.م) لينتهي نظام حكم الدولة آور الثالثة معلناً بداية حكم الاقوام الامورية الجزرية والذي استمرت تحكم متعاصرةً للمدة من (2004- 1595 ق.م) ويقصد به عصر مملكة آيسن ولارسا، واشنونا وبابل وماري، والملاحظ أن (نظام الادارة المركزية) فيها قد أخذ يتراجع بسرعة ليحل محله نظام الحكم (اللامركزي) لتعيش البلاد بعدها حالة من الصراع والتنافس والارتباك السياسي[41].

وقد عادت الدولة العراقية المركزية بعد ذلك وخاصة بعد ان تمكن الملك حمورابي خامس ملوك سلالة بابل الاولى (1772-1752 ق.م) من القبض على مقاليد الامور بقوة ونجاح في اعادة توحيد البلاد من جديد بدولة مركزية قوية مترامية الاطراف.

وقد تبين لنا انتقال الدولة العراقية من نظام (اللامركزي) الى نظام (المركزي) قد مر بعدة مراحل، فمرةً يكون تحالفاً واتحاداً عسكرياً واخرى تعاوناً وانضماماً طوعياً وان هذا الامر قد آملته ظروفاً سياسية معينة وثانياً انضماماً قسرياً أملته طبيعة وقوة مركز الدولة العراقية كما هو واضح في سيطرة كل من سرجون الاكدي، وحمورابي واشور اوبلط [42] فيما بعد.

ويبدو ان العراقيين القدامى قد تقبلوا هذا النوع من الادارة المركزية الحازمة بعد تسلم حمورابي الحكم للتخلص من الفوضى وعدم الاستقرار الذي عاشته البلاد بعد سقوط سلالة آور الثالثة عام (2004 ق.م) .

ولقد استمر الاشوريين يطمحون للسيطرة على كامل بلاد الرافدين بدءاً من عصر دولتهم الوسطى (1552 – 911 ق.م) وقد نحى ملوك هذه الدولة في تأمين حدود امبراطوريتهم والسيطرة على دولة مترامية الاطراف وكان الذي مكن الاشوريين من النجاح انما يعود لاتباعهم لاستراتيجية الحكم الشمولي المركزي ، ان ظهور دولة موحدة وتطورها الى امبراطورية قوية وكبيرة من الامور التي انفردت بها حضارة بلاد الرافدين من دون غيرها في تاريخ العالم القديم، وهذا الأمر قد انعكس على القاب ملوكها فظهرت القاب مثل ملك (القصر المركزي) والذي اطلق على الملك لوكال زاكيزي ولقب ملك (الجهات الاربع) والذي اطلق على سرجون الاكدي. وملك (الكون) أو (الملك / الآله) والذي اطلق على اورنمو. وملك (البلاد العظيم) والذي عرف به الملك (آشور بانيبال). بالاضافة الى تسميات تشمل ملك بلاد سومر واكد وبابل والذي اطلق على (حمورابي) وغيرها من الالقاب وهذه التسميات تظهر انها قد كرست ستراتيجية مركزية الدولة وقواتها وعلو شأنها. ان المترشح من المكان والزمان الجغرافي والذي احتضن الدولة العراقية القديمة عبر سياسياً عن ما يلي :- ان المنجز الحضاري كان يعبر عن وحدة كل من الاقوام المحلية السومرية، مع تفاعل وتكامل مع الاقوام الجزرية الوافدة من (اكديين وبابليين واشوريين وغيرهم) وان مفهوم الوحدة هذا قد كرس مبدأ التعايش السلمي والتسامح الديني والذي عُبر عنهُ سياسياً وحدة الحضارة في أطار التنوع البشري وان منطق الصراع أو الاحتراب لم يكن قائماً على قاعدة الاحتراب العرقي بل كان قائماً على قاعدة التغالب أو التغانم، دافعها حصول هذه المدينة أو تلك على زعامة المنطقة أو قيادتها من دون أن يكون لذلك الصراع علاقة بالانتماء العرقي أو البيئي لسكان أي مدينة. وهذا الامر هو الذي حافظ على وحدة البلاد وهويتها السياسية والثقافية على مر التاريخ .

الوحدة اللغوية

ظلت وما زالت اللغة واحدة من عناوين التعبير عن الهوية الثقافية وبالتالي التعبير عن الثقافة الوطنية ، والعراق من البلدان الذي ساهمت فيه اللغة السومرية والتي تعرفنا عليها من الكتابات المسمارية والتي عاشت حوالي ثلاثة الآف سنة سبقت ميلاد المسيح (عليه السلام) وقد قسمها الباحثون الى عدة اقسام منها :

أ- مرحلة اللغة السومرية في العصر السومري والتي استمرت بحدود الف عام... وشملت :

1. استخدام اللغة السومرية في العصر السومري القديم .
2. المرحلة السرجونية .
3. العصر السومري الحديث ويقصد بها (عصر دولة آور الثالثة) أي استمرت قرابة الف عام[43].

ب- واما المرحلة الثانية وهي اللغة السومرية خلال الفترة البابلية:-

1- وفيها استمرت هذه الفترة منذ عام 2114ق.م لتغطي مرحلة عصر دويلات المدن الاموريةثم مرحلة العهد البابلي القديم من عام (1850ق.م الى عام 1600ق.م) .

2- وكذلك مرحلة ما بعد العصر البابلي والتي استمرت من عام (1600 الى 100 ق.م) والملاحظ ان اللغة البابلية الحديثة استمرت تستخدم من قبل الاشوريين للفترة من عام (1950 الى عام 611ق.م) في عصورها القديم والوسيط والحديث[44].

ولابد ان نذكر هنا ان العراقيين قد دخلوا ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد وبعد اكتشافهم الكتابة والتعدين، العصر التاريخي... وقد كان لاكتشافهم الكتابة دور كبير في احداث ثورة في فكرة الزمن من خلال صياغة حلقات غير قابلة للدمار ما بين الماضي[45] والحاضر ، وذلك لما للغة من دور كبير في كتابة وحفظ تاريخ حضارة واساطير وثقافة الشعوب وقد استعمل السومريون هذه اللغة وقد كانت قدرت السومرين عن الكتابه والتدين كانت قد اضافت وامتزجت بالثقافات المحلية في بلاد الرافدين وقد كان لجيران السومريون وشركاءهم في الوطن ونقصد بذلك الجزريون (الساميين) وقد كان لصلاتهم بالسومريون واحتكاكهم ببعضهم الدور الكبير في ان يتفاعلوا مع لغتهم وثقافتهم حتى صارت اكثر حميمية وكان اقدم ممثل للعائلة الجزرية هم (الاكديين) والذين اشتهروا فيما بعد في الجنوب باسم (البابليين) وفي الشمال الغربي باسم (الاشوريين) وفي الغرب باسم الاموريين[46].

وعلى الرغم من التنافس الخفي بين السومريون والجزريون على السلطة السياسية في البلاد غير ان الثقة والتعايش السائد بينهما كانت هي العامل المشترك[47]. فقد عاشوا جميعاً يتنقلون ويطورون لغتهم والتي عاشت معهم طويلاً لتكون هذه اللغة خير أدات للدين والعلم لمدة ثلاثة الاف عام،ولذا حفظت لنا هذه اللغة وقدمت لنا معلومات كثيرة عن تاريخ وحضارة وفنون وادب بلاد الرافدين وفي هذا الجانب عرفنا الملوك العراقيين القدامى بانفسهم واعمالهم فزودتنا مصادرهم الكتابية بحوليات ملوكهم والتي سميت (باللمو) وتعني (سجل الاحداث) وعن طريقها تم تدوين اوامرهم الملكية ووثائقهم الاقتصادية وعقود البيع والشراء وموضوع احوالهم الاجتماعية من زواج وطلاق وتبني وغيرها من المعاملات التجارية.

كما ان هذه اللغة قد حفظت لنا كذلك ابرز شرائعهم والقوانين والاصلاحات التي صدرت منذ عهد الحاكم (اوركاجينا) المصلح السومري(اوركاجينا والذي حكم حوالي ثماني سنوات) الى اصلاحات لبت عشتار، واشنونا، واورنمو، وحتى قوانين حمورابي والذي يعد من انضج القوانين في الحضارات القديمة[48].

لقد حفظت لنا الكتابة واللغة كذلك والتي تم التدوين بها حقوق الدولة والافراد ونظمت علاقة الانسان بالانسان الاخر، وحافظت كذلك على مهابة وقوة القانون في المجتمع العراقي القديم، وقد ظلت هذه القوانين هي الشرعة التي تحكم العالم القديم، اذ أقتبس كثير من الاقوام هذه القوانين وانتشرت في ارجاء المعمورة فا استخدمها العيلاميون والحوريون والحوثيون والسريان واليونايين والرومان وقد استخدم كل منهم اللغة واللهجة الخاصة بهم بعد أن تمكنوا من فك طلاسم الخط المسماري واللوح الطيني البابلي القديم[49].

وقد احتوت هذه اللغة وتأكيداً لخصائصها التاريخية الكثير من الاسس والصفات والتي توارثناها مازلنا نستعملها في حياتنا اليومية اليوم كمهمات منها:-

باريه ، كمون، زعفران ، اصفر، غامق، صمغ، اكو، ماكو، بستوكه وما تزال بعض كلماتها تستعمل في اللهجة القرآنية والعربية الفصحى امثال جمار، ارجوان، آلآس، اقليم ، اسفين، خردل، حنطة، رمان ، زعتر، دلو، سوسن، شريان، عدن، عرش، قانون ،كتان، نفط ، مشط ، نجار[50].

وترى الباحثة البولونية كريسنا غافيليكوفسكا في كتابها الموسوم (Sztuka Mezopotamia) (الحضارة في بلاد النهرين) ان بلاد النهرين كانت هي جسر طبيعي ممتد بين بلدان حوض المتوسط في الغرب والهضبة الايرانية في الشرق وبين جبال ارمينيا والاناضول في الشمال والخليج العربي في الجنوب وقد يسرت لها سهولة المواصلات في هذه المنطقة الخالية كلياً من المرتفعات الكبرى والتي يخترقها نهران صالحان للملاحة، للاتصال بالشعوب المجاورة وقد شجعت في الوقت ذاته هذه الشعوب للاغارة مراراً على البلاد فقد نظر الجبليون من زاكروس والرحل من البوادي المجاورة بآعين مهمة الى اراض ما بين النهرين[51].

وتأكيداً لأهمية اللغة والكتابة في تراث وادي الرافدين فقد سعى كل الملوك الذين تعاقبوا على حكم هذه البلاد ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد وحتى عهود متأخرة على الحض على تعليم القراءة والكتابة والتي كانت معروفة سواء بشكل منفصل أو ملحقه بالمعابد المنتشرة على طول الدولة وعرضها وقد كانت من اهداف هذه المدارس تدريب جهاز من الكتبة والمتعلمين حفظ فنون الكتابة والادب وتدوين كثير من قصص الخلق او الانسان، والاناشيد ، والتلاوات الدينية، والمراثي، وكذلك الكتابات التي تمجد ملوكهم أو توثق بعض الحوادث التاريخية ولتشريعات القانونية وكثير من الشعائر والطقوس الدينية والحروب التي خاضتها دولتهم.

مما تقدم يبدو أن اللغة كانت بمثابة الوعاء الثقافي الذي ساهم في معرفة تاريخ هذه الاقوام وتواريخ استمرار امبراطورياتهم، كما ان اللغة كهوية ساهمت في تقديم معلومات كبيرة على معرفة تقاليد هذا المجتمع وعاداتهم وطبقاته وهي قد ساهمت ايضاً في توحيد اطراف هذه الدولة مع بعضهما البعض من خلال تداول لغة واحدة في التشريع والقوانين والتوثيق والتدوين والثقافة والدين والادب . لذلك ظلت عملية الكتابة وتشريع القوانين، حقيقتان تتسمان بأهمية خطيرة في بناء الحضارة والحفاظ على هوية المجتمع الرافديني ولكن ثمة حقيقة اخرى تسير جنباً الى جنب مع هذين العنصرين الحضاريين، وتتمثل في استمرار شعور الافراد بالحقوق والالتزامات في عالم تتقاذفه الاحداث والتغيرات المثيرة[52] أن هذا الشعور هو الذي يدفع الانسان على طريق الامل ويعزز كفاحه من اجل بناء حضارته.

الوحدة التاريخية

لقد عاش العراقيين القدامى من (السومريين والجزريين) والذين كونا المجموعة الحضارية التي اخذت على عاتقها بناء منجز ابداعي كبير، داخل منطقة جغرافية واحدة متشابهة في ظروفها المناخية أو يسيطر عليها الامتداد الصحراوي الذي يحيط به مناطق الوديان المختلفة وقد كان لحركة الهجرة المستمرة من قلب الجزيرة العربية الى سهل الوادي دور كبير في اندماج هذه الشعوب وانحصاره في بوتقة واحدة وتقريب المسافات بين ساكن الصحراء وساكن الوديان [53].

هذه الوحدة الجغرافية وعملتها عوامل التاريخ حيث شهدت المنطقة الظهور المتوالي لمجموعة من الممالك والدول والامبراطوريات السياسية وقد نجحت هذه الدول في توحيد المنطقة سياسياً وفي تطوير نضمهم الادارية والاقتصادية وبتشابه متبنياتها الاجتماعية والدينية والثقافية[54]. ولقد عكست كثير من المظاهر السياسية والفنية والفكرية (وحدة التاريخ المجتمعي في هذه البلاد) فقد بدأ تاريخ كل المدن بظهور حاكم المدينة (الآين) (السيد الكاهن) وبوجود الههها المحلي وببناء معابدها وسط المدينة العاصمة ثم انتقلوا بعد ذلك لنظام حكم الأنسي) (الأمير) ثم (الباتسيتي) (الحاكم) حتى ظهور (اللوكال) أي (الملك). لقد انطبعت كثيراً من المظاهر التي ابتدعها السومريون في حياة البابليين والاشوريين فقد تداخل تاريخ اقوام هذا الوادي العريق فمن السومريون اخذ البابليون والاشوريين حروف الكتابة المسمارية وكتبوا بها تاريخ دولهم ووقائع حروبهم. وسجلات تجارتهم " وادابهم" واوامرهم الادارية، كما ورث الاشوريين عن البابليين طرقهم في الزراعة فعرفوا زراعة انواع المحاصيل الزراعية ونقلوا عنهم طرق التجارة واساليبها، كما كان لفنون العمارة واصولها البابلية وأن اختلفت مادة البناء من الآجر الى الاحجار، وقد بقيت الابنية الاشورية تعكس على جدرانها اعمال الزخرفة والصور البارزة التي ابتدعها البابليون[55].

نعم لقد عبرت الوحدة الثقافية هذه عن هوية تاريخية واحدة فقد جسدت الكتابات التاريخية مراحل التطور والاستقرار التي مر بها وعاشتها الاقوام العراقية القديمة ، وثبتت التطور التاريخي الحاصل على شعوبها في بقية مراحلها السومرية والاكدية والبابلية والاشورية والكلدية، كما أن الوحدة التاريخية قد بدأت واضحة في تدوينها في سجلات ملوكها ولأبرز المراحل السياسية التي عاشتها، امبراطوريات العراق القديم وكيف انتقل نظام الحكم

فيها من دولة المدينة الى الدولة المركزية ومن حكم (الكاهن) الى حكم(الملك) أي الانتقال من (الدولة الثيوقراطية) الدينية الى (الدولة المدنية)، وكشفت الكتابات التاريخية ايضاً التطور الحاصل في ستراتيجية نظام الحكم في امبراطوريات مهمة وملوك وحكام مهمين امثال سرجون الاكدي، واورنمو، وحمورابي، واشور بانيبال، ولقد بدأت مظاهر الوحدة التاريخية بادية للعيان في ذلك التسلسل في التدوين التاريخي والذي حرصت عليه مؤسسة الدولة العراقية، وظهر ذلك جلياً ايضاً في حرص مؤسسة الدولة على تدوين انجازات هذه الحضارة سلماً أو حرباً كما انها حرصت على تدوين فترات الحكم الاجنبي للعراق من كشيين وكوتيين، وحيثيين واخمينيين وسلجوقيين وفرثيين وساسانيين[56] . وان الوحدة التاريخية كمظهر من مظاهر التعبير عن هوية الحضارة العراقية وقد سعي العراقيين وعلى الرغم من قهر الحكام (محليين واجانب)، إلا ان العراقيين ظلوا بمجتمعاتهم القديمة مصرين على المحافظة على الخريطة الجغرافية للعراق القديم، فلم تدثرها أو تمحيها رمال الزمان او سنابك خيل المحتل، فخلدَ العراقيون ابطالهم التاريخيين في كثير من اساطيرهم وفي كثير من مدوناتهم بدءً من ملحمة (كلكامش) مروراً بحكاية (أروكاجينا) وبطولة (واتوحيكال) وانتهاءاً ببسالة (سنحاريب) وحزم اشوبانيبال لقد كان تاريخ هذه الاقوام وليس تاريخاً لامبراطوريات اخرى، وكانت فيها الارض واللغة والتاريخ الرافديني هي المدار التي ظلت تتحرك وتنمو فيه الحضارة والهوية الحضارية لهذا البلد[57].

لقد جسد تاريخ العراق بحق الهوية الرافدينية (الوطنية الحقيقية) من خلال ايمان العراقيين القدامى (أي كانت مشاربهم بارتباطاتهم بشكل اساسي بالاحاسيس والمشاعر التي يكنها بعضهم البعض من خلال عيشهم المشترك على ارض جغرافية محددة ورغبتهم في البقاء تحت نظام سياسي واحد)[58]. كانوا قد دافعوا عنه بضراوة واستبسال نادرين فتناسلوا اساطيرهم وطقوسهم وادعيتهم وامثالهم كانها كنوز مثبتة يتوارثونها جيل بعد جيل ان هذه الوحدة والانتماء الثقافي والوطني هو الذي مكنهم من البقاء طويلاً في التاريخ وجعلتهم يستعينون ببعضه عند الحاجة[59].

الوحدة الدينية

الدين هو حالة الايمان بوجود قوى عليا[60]، أما التدين فعبر عنه كونه مجموعة انساق للمعتقدات والممارسات والتنظيمات والتي تشكل الجانب الاخلاقي في السلوك والمعاملات ، لقد برز تدين الشخصية العراقية في احساس العراقي قديماً من كونه مرتبط بقوة اكبر منه لا يريد ان يتحرك الا بأمرها، ويحق لنا القول وبناءاً على مقدمات كثيرة لقد كان العراقي هو مكتشف ديانته بعد أن امن بوجود كائن متسامٍ او اكثر تلتزم امامه الانسانية بواجبات معينة[61].

ولقد آمن السومريون والاكديون والبابليون والاشوريون بوجود الالهة المقدرة للحياة واقتنعت هذه الاقوام بوجود نظاماً قوياً للأشياء وغير ممكن تبديله ابداً انه كالمقدسات[62]. او انه المقدس فعلاً .

لقد أثرت الطبيعة في حياة ابناء الرافدين القدامى وابقت فيهم روح التفكير والتأمل في ماهية الموجودات، لذلك بدأ العراقي القديم يبحث عن حلول للظواهر الطبيعية والتي كانت تحيط به او تتأثر فيه ، وكان في مقدمة تلك الحلول هو اعطاء صفة الالوهية لكل ظاهرة ، لاعتقاده ان وراء كل ظاهرة قوى خفية غير مرئية ليس باستطاعته مجابهتها فكان يتقرب اليها من خلال تقديم طقوس الطاعة والولاء اليها، ويعتقد تاريخياً ولاهوتياً أن أول معبود تصورته المجتمعات الزراعية السومرية كان ذا صلة بقوى الارض المنتجة التي جسدها على هيئة الهة تمثل الارض وخصوبتها وعرفت باسم (الالهة الام)(Goddess Mother)[63] . وكان لإلتحام السومرين مع الاقوام الجزرية (السامية) في حدود الالف الثالث قبل الميلاد هؤلاء قد حاولوا ان يعيشوا كما اسلفنا بجنبهم، ومن ثم مختلطين بهم مقتبسين منهم بعض اطوار ديانتهم[64].

* لقد كان التدين العراقي قد عبر عن شخصية العراقي القديم كما قال (هنري فرانكفورت) وهي اعلاناً منه للانحياز الكامل في الصراع الدرامي بين الخير والشر في الطبيعة فانتصار قوة الخير مهمة جداً لأن صالحه يعتمد عليه اعتماداً عكسياً، لانه انحيازاً الى الرب كما هو واضح في هذا النص:-

(الرب)... الذي يصل امره الى ابعد مكان .

(الرب)... الذي لا يبدل .

(الرب)... الذي بيده المصائر الى الابد...[65].

* وان تدين العراقي كان يدعوا الى الفضيلة ويسعى اليها دائما لانها ميزة للخير دائماً كما يظهر في هذا المقطع:-

ارفع عذاباتي (يارب)

وساغني بحمدك[66].

* والتدين في المجتمع العراقي كان يدعو الى الوحدة الاجتماعية من خلال احساس العراقي القديم بأن الالهة هي الضامن له أو الحافظ له في حالات الشدة الاجتماعية فها هو يقول :-

الرب/ هو الذي يغير مصائر الكائنات.

عيناهُ تفحصُ الارض، والسماء وشعاعهُ ينفذ الى اقاص البلاد[67].

أو كما تقول واحدة من ادعيته :-

انعم في التأمل في لوحتك

واتعلم الخشية تورث الرضا .

وان الصلاة منجاة الانسان[68] .

ان لجوء العراقي القديم الى التدين وطقوسه في الدعاء والصلاة والتطهير والاعتراف هي التي ستجعل الالهة تغفر ذنوبه وتبعد عنه شر المرض او الموت وتجعله سعيد، أن فكرة التدين كانت تجعله اكثر ورعاً وطاعة وان فكرة التضرع والدعاء تمثل مرحلة نقاء ذهني وحضاري تمثلت فيها روح الفضائل الاخلاقية وان مجرد احساسه بالخطيئة والذنوب ووجود العقاب من الالهة، يعبر عن مسؤولية ووعي الشخصية العراقية بسطوة وقدرة (الهة الكون) التي تعبدها في معاقبة الاشرار والضالين وهو درس يحثه على التواضع والحلم والتفكير والتحسس كما هو واضح في هذا المقطع والتي يعلن فيها عن ترقبه للالهة (انو) فيقول:

على صوتك يخُر الجميع ساجداً

مثل نبات القصب تحت رحمة الريح العاصفة[69].

لقد كان من ابرز مظاهر المشتركات الدينية في حضارة وادي الرافدين سومرية كانت ام اكدية ام بابلية ام اشورية، تمثل فيما يلي:

* اتخاذها الظواهر الطبيعية كألهةٍ مثل الشمس والقمر والزهرة وعطارد فكان كل اسم يدل على ظاهرة معينة وتمثل لها وظيفة معينة جسدها العراقي في تلك الظاهرة .

* وقد عرف العراقي في دينه مبدأ تعدد الالهة فعرف أن لكل مدينة أو مملكة الهاً محلياً ثم الها قومياً (مركزياً) إذ أنهم كانوا يفضلون أحد الالهة على غيره ويعتبرونه رئيساً لآلهتهم أو (أباً) لهم وقد تتغير هذه الالهة تبعاً

للظروف السياسية العسكرية. وهذا ما يعرف عند العراقيين (بمبدأ التفضيل) لذلك نجد طوراً تتسيد فيه كل من الالهة (انو وانكي) في عصر الدولة السومرية والالهة (انليل وننليل) في مرحلة أخرى أو الالهة (مردوخ) عند البابليين أو الاله (آشور) عند الاشوريين (او عشتار) في مراحل تاريخية أخرى .

* وان من اهم مميزات العقد الديني عندهم هو (احتفاظ الالهة لنفسها بالخلود) بينما جعلت الموت من نصيب البشر .

* ومن الصفات التي تميزت بها الديانة العراقية القديمة (صفة الاستمرارية) أي ان الشعائر والمعتقدات الدينية والالهة بقيت محافظة على جوهرها خلال العصور التاريخية المختلفة السومرية والاكدية والبابلية والاشورية وكان لكل منها صفاته الخاصة ومسؤولياته كما كان لكل منها رمزه المعين .

* كما اعتقد العراقيون القدماء بان معظم الالهة تسكن في السماء وهناك الهة تسكن في العالم السفلي (عالم الاموات) وهو طقس ديني يؤكد على ضرورة الاهتمام بالعالمين او البرزخين وأن هذين المفهومين يتطلبان منه الطاعة للالهة في الحياة والاستعداد لما تقرره عليه في عالم الاخرة .

* وقد كان العراقي ملكاً او رجلاً عادياً متديناً بطبعه ، فكان مثلاً من اهم اجراءات اشهار الملوكية او من ضروريات اكتمالها ، مباركة الالهة للملك المنصب وان تعميده في معبدها مضهراً دينياً لاهوتياً ضرورياً .

* ومن الشعائر الدينية المهمة ضرورة تعهد الملك المعمد الجديد بعدم مخالفته لتعاليم الالهة وضرورة قيامه بالصلاة وتقديم النذور والدعاء اليها في المناسبات الدينية .

* وقد عُدَ تقليد بناء المعابد للالهة الرئيسة ومتابعة شؤون المعابد في المدن التابعة للدولة من اهم الشعائر الدينية ومن الواجبات المقدسة للملك أو من ينوب عنه، ويلاحظ ان الدين والتدين في اشكاله الخارجية في العراق القديم قد استمرت بدون تغيير ولا اصلاح حتى عهد السلوقيين وأن أي تحول مهم لم يحدث كحرف لمسار عقيدتها التي افتتحت من قبل السومريين والمتمثل في عنصري (الولاء والطاعة) والتي ما عداها فأنه سيجلب الشر والعقاب والكوارث لمنكريها، إذ ان الالهة ومنذ العهد البابلي الأول صارت اكثر سيطرة على عالم الاشياء وبصورة خاصة على عالم الشر واصبحت الالهة ليست قوى طبيعية بل اخلاقية ايضاً ووضعت تحت مسؤوليتها كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية والخلقية وقد اضفت طبيعتها الارضية (البشرية) وهي المميزة للديانة السومرية، لكن العلاقات بين الساميين وعالم الكواكب في فكرهم الديني ظل مستمراً واتاح المجال تدريجياً لقوى كونية عالمية اخرى ان تبقى على انسجام سير العالم[70].

أن الخطوط الرئيسة للديانة الخاصة بوادي الرافدين والتي نجحت في اطوارها الاخيرة والتي تبناها كل من الاموريين والكنعانيين قد ساهم في نقلها عن طريق الكنعانيين الى اليونانيين وذلك حيث بدأ العصر الهيلتي ليتمثلها ويتباها بها وينشر كنوزها على العالم كله[71]. لقد ظلت المؤسسة الدينية سواء في مركزها الديني المتمثل في المعبد وملاكه من كهنة وكاهنات تمارس دورها الديني والشعائري ولكن عملهما لم يقتصر عند هذا الحد إذ ظل المعبد تاريخياً يلعبُ ادواراً سياسية في مراحل ضعف الدولة المركزية ويتدخل في تولية بعض ملوك وحكام دولها، كما مارس دوراً اقتصادياً متمثلاً في احتكاره للعمليات الاقتصادية من بيع وشراء وامتلاك اراضي، ويمارس كذلك دورهُ التعليمي على صعيد اللاهوت أو على صعيد توسيع قاعدة القادرين على معرفة الكتابة والحساب والتدوين في كتاتيب وصفوف ملحقة به .

الوحدة الثقافية

الثقافة هي كل ما يتصل بمقومات الفرد والمجتمع وما ينطوي عليه كدحهما في الحصول على المعرفة والقصائد والعلوم والادب والفن والاخلاق، والقانون والعرف وغير ذلك القدرات[72].

والثقافة وفق هذا التعريف/ تصبح الطريقة التي يعيش بموجبها الشعب ويفكر بمألاتها وبالتالي هي حصيلة عمل جماعي للشعب كله في عصور تاريخية طويلة[73] في الكشف والاختبار. وبما ان كل فرد في المجتمع يصبح جزء من ثقافة وطنه وعصره، لتصبح الثقافة بعد ذلك تعبيراً عن هويته... وهي تساهم فيما بعد لتكون كياناً او اسلوباً من اساليب التعبير عن السلوك[74]. أن الثقافة أو الهوية الثقافية لاي مجتمع انما هي تعبير عن روح ذلك العصر ومرحلة التطور التاريخي التي وصل لها وهي معرض تاريخي محدد عند جماعة خاصة تضع فيها رؤيتها لتكون فيه تصوراتها للعالم[75].

ان الهوية الثقافية التي شكلها التراث الادبي والفني العراقي القديم كان قد نشأ على هيئة تراث قومي شاركت في انتاجه اجيال كثيرة من الادباء ولم ينفرد بانتاجه اديب واحد على غرار ما نعرفه في الادب الحديث.

وقد عرف الانتاج الادبي العراقي القديم بالاصالة والابتكار والابداع والتنوع ... فالعراقيين لم يتركو ضربا من ضروب الادب إلا وطرقوه فلقد الفوا، القصص والاساطير والملاحم وكتبوا الصلاوات والادعية والامثال والحكم والنصائح وبرعوا في كتابة قصائد الغزل والمراثي.

وقد كان هذا النشاط والمنجز الثقافي من قصص واساطير وملاحم ادبية هو الوعاء الذي وضع فيه الانسان العراقي خلاصة فكره، فأصبح هذا النتاج وسيلة الانسان للتعبير عن انشطته المختلفة .

وقد تميزت الثقافة في العراق بمجموعة من الخصائص التاريخية المهمة فيلاحظ انها تميزت بما يلي:-

1- لقد كان الادب والفنون والثقافة العراقية بشكل خاص هي من اقدم اداب الشعوب. وقد امتازت هذه الثقافة بكونها كانت موغلة بالقدم وان بداياتها كانت لا تنتمي الى حقبة تاريخية معينة لان بداياتها كانت قد سبقت ظهورها مكتوبة في الالف الثالث قبل الميلاد.[76]

2- ويلاحظ ان ادب وفنون بلاد الرافدين وصلتنا نماذجها الاصلية فلم تتعرض الى تغيير او تحوير او تبديل، ولكن هذا لا يمنع من أن نقول من ان الخيال الجمعي للاقوام التي تلت السومريين (اكديين وبابليين واشوريين) قد ساهم في تطوير صياغات جديدة لهذا الادب لكنه سعى الى محاولة الحفاظ على جوهر الفكرة الادبية وتناص معها او أضاف عليها ليس إلا .

3- ولقد تنوع هذا الادب من شعر ملحمة وقصة ونثر وهجاء ومراثي وصلوات وهذه الظاهرة في تعدد انماط الادب عبرت بحق عن تنوع مدارسه وقدرة الاديين الرافدين القديم في اجادت كل الفنون والاخماس الثقافية وتجديده لها وتعبيره البليغ عبر كل هذه الاشكال بانماط ثقافية متعددة .

4- والملاحظ ايضاً ان هذا الادب قد كتب بأكثر من لغة او انه اجاد كتابتها في اكثر من لهجة سواء كانت سومرية أو اكدية او بابلية او اشورية مع محافظة على جوهر فكرة العمل الادبي وأن تغيرت طريقة التعبير عنها .

هوية الادب والثقافة العراقية القديمة (اجتماعياً)

ويمكن ان تثبت الخصائص التالية :-

1- لقد امتاز الادب العراقي ورغم غزارته وتنوع انماطه الفكرية والفلسفية بعدم الانتساب الى فرد معين وكان هذا الادب قد انتقل من منشدهُ الاول والذي كان شخصاً مجهولاً، وقد ظلت هذه الثقافة أي كان جنسها تنتقل من شخص الى آخر بالكتابة او شفاهاً، كما هو واضح في (قصة الخليقة) (او قصة خلق الانسان) أو في (ملحمة كلكامش)و(اسطورة اداب)و(الطوفان) وغيرها من النصوص الادبية .

2- ولقد برع فن السرد القصصي او ما يسمى بالشعور الملحمي والذي يعد من اقدم الفنون ولذلك يمكن القول ان الشعر الملحمي في القديم كان اصله في (سومر) وليس من أي مكان اخر في العالم .

3- وقد سعى الادب والفن والثقافة العراقية القديمة الى توثيق ابرز الاحداث والوقائع التاريخية وقد عُنيت كذلك في تجسيد ظاهرة البطولة وتحديداً بعد عصر فجر السلالات (3000- 2400ق.م) والذي عرف بعصر البطل والبطولة وقد اشتهرت فيها قصص أوركاجينا المصلح، اينمركار، ولوكال بندا، وكلكامش ، وأتو نابشتم، وغيرها من الاساطير... الخ .

4- ان الادب والثقافة العراقية كهوية اجتماعية قد عكست بحق حجم المعاناة في كثير من هذه القصص، وفي تحديه للطبيعة في غضبها عليه من خلال ظاهرة الطوفان أو في كوارث القحط وفي قصص الحب (اسطورة تموز وعشتار) وفي قصة (نزول اينانا أو عشتار الى العالم السفلي) وتأكيداً لريادة الثقافة الرافدينية وبقية منتجها نجد ان كثير من نصوص هذه الثقافة قد انتشر في اداب وثقافة الشعوب الأخرى من مصريين ويونانيين ورومان.

ولم تقف حدود العراقية عند حدود الادب بل ازدهرت الحياة فيها الى حدود اكبر تمثلت في تطور الفنون النحتية والرسم والفن المعماري فيؤكد العالم (برستد) براعة الاكديين في النحت فيقول :-

لقد فاقوا فيها حدود معلميهم" من السومريين" بعد زمن قليل من تعلمهم اياها ... وبلغ الاكديين في صناعة الاختام السومرية الجميلة درجة عالية من الاناقة[77]. ولقد وصلَ الفن في بابل زمن حمورابي الى مرحلة متقدمة من التنفيذ ونلاحظ كذلك رغبة جلية في التجديد فهناك اصرار من قبل الفنان الرافديني في التجديد وفي تصوير المشاهد الاكثر واقعية في مقطوعاته [78].

أما عن الفن والعمارة الاشورية فنلاحظ ان الفنان الاشوري قد تمسك بالثقافة الفنية المتوارثة مع ظهور فن النحت الجداري البارز مع اهتمام بيوميات الملوك ووجود فكرة السردية في الاعمال النحتية وقد أهتم الاشوريين ايضاً في البيئة اهتماماً واضحاً[79]. فقد مال الاشوريين الى استخدام النحت البارز في تجميل القصور والمبالغة فيها واستخدام الحجر كمادة ضرورية لمنحوتاتهم بكثرة وفي تمثل المشاهد الحية ، وقد تفوق الفن في اشور على غيره من الفنون والحضارات الأخرى[80]. والملاحظة الأولى التي يمكن تثبيتها على ثقافة وادب وفن العراق القديم والتي كانت تعد سمة بارزة تعبر عن هوية هذا المجتمع . ان هذه الثقافة قد عبرت عن الشخصية العراقية تعبيراً حقيقياً في مغامراتها وفي خلقها وفي مبالغتها وخيالها، ورغم تنوع هذا الادب والفنون لكن الملاحظ تاريخياً ان هذا الادب قد توارثته اوتناسلتهُ الاقوام العراقية القديمة وسعت الى تطور تجربتها الثقافية في الشعر والملحمة والقصة والمثل والنحت والعمارة وحتى الكتابة كما اسلفنا سواءاً من خلال حفظه للاجيال والتناص معه أو تطوير سردياته القديمة.

والملاحظة الثانية :- ان هذا الادب عبر عن وعي وذكاء وسبق تاريخي وثقافي خصوصاً في ريادة هذا الانسان في صنع الاسئلة الكونية والفكرية وفي اجابته عليها، خاصة في موضوعات خلق الكون وخلق الانسان والحياة

والموت والخصب والخير والعدل والملاحظ ان هذه الاقوام قد طورت من تجربتها الابداعية والثقافية وتكاملت شعوبها مع بعضها البعض في تطوير قدراتنا الفنية والذوقية ونجحت في التعبير عن هويتها الثقافية والحضارية .

والملاحظة الثالثة:- ان الاداب والفنون العراقية القديمة بانماطها المختلفة قد عبرت عن معاناة المجتمع وآلامه كما ذكرنا ومحنه وهي عبرت عن هوية وطنية خالصة حينما جسدت تحديها للمكان، وان هذه النصوص لم تخفي انحيازها الى الانسان كقيمة والى قيم الخير فيه وفي رفضها للظلم وثورتها على الفقر والجوع وفي كرهها للحرب وحزنها على موت الانسان أو دمار مدنه أو خراب حضارته. ان هذا الادب كان ادباً انسانياً وعالمياً خالصاً واصيلاً عبر ان هويته مواطن حضاري محب للحياة محب للخير محب للعمل والدليل على ما ذهبنا اليه رفض هذا الانسان فكرة الموت المحتوم وبحثه عن الخلود الذي قدرته عليه الالهة .

ان الهوية الثقافية في تجلياتها المعروفة والتي عبر خير تعبير عنها سمات وهوية (حضارتها) والتي ترسخت منها وحدة جغرافية واضحة ووحدة مجتمعية (اثنية رائعة) وتاريخ حافل بكدح هذه الشخصية وبراعتها، ووحدة لغوية رصينة ووحدة ثقافية وادبية عكست بشكل جلي عظمة هذه الشخصية وحقيقتها وروحيتها وعبقريتها التي شكلت من انتقام الجغرافيا ملعب لتحدي حضاري من نوع جديد . وكرست ثقافة وهوية وطنية اصيلة ليست مخترعه .

المصادر

(1) ميثم الجنابي : الفلسفة والهوية الوطنية درافيرر وبوتاميا، بغداد، 2012، ص14.

(2) المصدر نفسه، ص15.

(3) انتوني سمث: الوطنية والنظرية والايدلوجية والتاريخ ترجمة، منصور نصاري، طهران 2005،ص 33.

(4) المصدر نفسه : ص218.

(5) ارنست تجلز: الأمة والقومية . ترجمة مجيد الراضي، دمشق دار الدين، 1999، ص24.

(6) اتولر كان جينيت وريينه موهابية: هذه هي القومية ترجمة: محمود عناني، بيروت 1953،ص28.

(7) بترجي كانترتشياسي: الحضارات في السياسة العالمية، الكويت 2012،ص37.

(8) المصدر السابق،ص 29.

(9) المصدر نفسه،ص62.

(10) ول ديورانت: قصة الحضارة: ترجمة لجنة التأليف والترجمة والنشر الجامعة العربية (القاهرة 1959)،ج1،ص3.

(11) جين بواس: الحضارة، مقدرات عالم المعرفة (الكويت بلا) ص13.

(12) سوزان هوبير رودلف : اربع قوميات على اوتار الحضارة، كتاب الحضارة السياسية، المصدر السابق،ص 252.

(13) صموئيل هندوكتون: صراع الحضارات .

(14) Gasndlc L: benalism and the limitis of Justic p. 150.

(15) رماتيا صن : الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، دار المعرفة، 2008،ص18.

(16) رماتيا صن : الهوية والعنف،ص21.

(17) هوبنز باوم: دراسات في تاريخ القاهرة، بلا ،ص204.

(18) عمار علي حسن: الدولة والحضارة، بحث مطبوع على الالة الكاتبة ، جامعة القاهرة ، 2004،ص11.

(19) ديفيد ميلر: الوطنية، دار عز باقر (طهران ، 2004)،ص15.

(20) تقي الدباغ: من القرية الى المدينة / الاولى/ من كتاب المدينة والحياة المدنية (بغداد 1988) ،ص43.

(21) المصدر نفسه : ص43.

(22) المصدر نفسه:ص43.

(23) تقي الدباغ: من القرية الى المدينة الاولى، ص46.

(24) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد 1973،ج1،ص325.

(25) حول التسمية ينظر طه باقر: المقدمة ج1، ص325. وسامي سعيد الاحمد: ج1 العراق القديم(بغداد 1978)،ج1،ص 137.

(26) طه باقر ج1، ص6،ص8. سامي سعيد الاحمد ، ج1،ص137.

(27) ينظر طه باقر: المقدمة ،ج1، ص7-8، عامر سليمان واحمد الفتيان ، محاضرات ، ص27.

(28) طه باقر: المقدمة ، ج1،ص87.

(29) المسعودي علي بن الحسن (ث ، 346هـ).

التنبيه والاشراف (القاهرة ، بلا) ،ص 32.

(30) المصدر السابق : ص 33.

(31) ابن رسته. ص233.

(32) Anthony smith, the politi csof culture, (London. 1999) p. 706.

(33) Ibid . p. 713.

(34) Aptinbo Moscati. The face of Encienbt Gwent trans frome the ltaline (New yourk 1962) p.6.

(35) Sabtino Moscati, Ancient semtic civilizations putnams sons (new york) 1966. p. 31.

(36) ميثم الجنابي : الفلسفة والهوية،ص 23.

(37) سوزان هوبير رودلف: الحضارة الثقافة السياسية، ص 225، ص 226.

(38) ديكانوف وآخرون: الدولة الاستبدادية في العراق القديم، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد 1976)،ص277.

(39) احمد مالك الفتيان: دراسات في التاريخ القديم (بغداد، 2011)،ص43.

(40) مزهر الخفاجي: العراق بين نظام الدولة اللامركزية الى نظام الدولة المركزية (بيت الحكمة، بغداد 2012)،ص19.

(41) سامي سعيد الاحمد: العراق القديم، ج2،ص164، ص184.

(42) مزهر الخفاجي: المصدر السابق،ص 23.

(43) فوزي رشيد: قواعد اللغة السومرية، دار اصفات (سوريا 2009)، ص27،ص29.

(44) المصدر نفسه،ص29.

(45) أي – سبيرز: حضارة وادي الرافدين نور لايخبو. ترجمة كاظم سعد الدين ، دار الشؤون الثقافية بغداد، 2004،ص14.

(46) المصدر نفسه: ص14.

(47) أي سبيرز، حضارة وادي الرافدين، ص14.

(48) ينظر فوزي رشيد: الشرائع العراقية القديمة، دار شؤون الثقافة بغداد، 1988،ص64.

(49) أي . سبيرز: ص39.

(50) أي – سبيرز: ص33، طه باقر: من تراثنا اللغوي، مجلة سومر العراقية بغداد(1950) ص114.

(51) James Mellart: Earliest civilization of the Near East , p.63.

(52) أي سبيرز: مقدمة كتاب اساطير سومر، صموئيل كريمر، ترجمة يوسف داوود ،طبع جمعية الترجمة مطبعة المعارف بغداد 1971.

(53) محمد خليفة حسن: تاريخ الشرق الادنى (القاهرة بلا) ص33.

(54) المصدر نفسه:ص33.

(55) مزهر الخفاجي: العراق بين نظام اللامركزي والنظام المركزي، ص36.

(56) المصدر نفسه ،ص39.

(57) مارتن فان بروستن: الدولة والاثنية،ص29.

(58) دولان بركون: الانثربولوجيا السياسية القاهرة 1920،ص66.

(59) مزهر الخفاجي، المصدر السابق،ص 38.

(60) جميل صليبا: الموسوعة الفلسفية، دار الكتاب(بيروت 1982)ص537.

(61) جورج كونتينيو: الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليمان طه التكريتي ، دار الشؤون والثقافة بغداد 1996، ص401.

(62) طه باقر : المقدمة / ج1،ص199.

(63) سامي سعيد الاحمد: عبدالقادر الشيخلي، الوجيز ،ص 223.

(64) جان باتيرو: الديانة عند البابليين ، ترجمة وليد الجادر، مركز الانماء سورية 2005،ص10.

(65) هنري فرانكفورت: ما قبل الفلسفة ترجمة ، جبر ابراهيم جبر،ص38.

(66) فيصل الوائلي: صلاة لكل آله ، مجلة سومر، بغداد، 1995،مج2،ص193.

(67) جان باتيرو: الكتاب العقل الالهة : ترجمة البير ايونا (الثورة الثقافية بغداد1989).

(68) عبدالرضا الطعان : الفكر السياسي في العراق القديم بغداد، 1981،ص529.

(69) جان باتيرو: الديانة عند البابليين،ص 71.

(70) المصدر نفسه،ص32.

(71) المصدر نفسه ،ص 33.

(72) مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه (القاهرة- 1976)،ص189.

(73) جبور عبدالنور: المعجم الادبي(بلا ت بلا)ص81.

(74) تمارة ناطور: الحضارة والتاريخ (عمان 1988)،ص64.

(75) فاضل عبدالواحد وعامر سليمان : عادات وثقافة الشعوب القديمة الموصل،ص139.

(76) ينظر طه باقر : مقدمة في تاريخ الادب،ص39، وكذلك فاضل عبدالواحد سومر اسطورة الشعوب وملحمة ،ص 297.

(77) جيمس برستد: العصور القديمة ،ترجمة داوود قربان (بيروت 1946) ص93.

(78) ثروت عكاشه :الفن في العراق القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973،ص 348.

(79) المصدر نفسه : ص428.

(80) طه باقر: المقدمة ك ص 537.